إضاءات نقدية (فصلية محكّمة)
السنة الأولى – العدد الرابع – شتاء ١٣٩٠ش/كانون الأول٢٠١١م

الخصائص الفنية لمضامين شعر محمود درويش

حسن مجيدی*
فرشته جان نثاری**

الملخص

يعتبر محمود درويش من أشهر شعراء المقاومة لفلسطين، الذى عاش فى الغربة والتشريد، وحمل أعباء القضية الفلسطينية. شعره أقرب إلى صدق التجربة والإصالة فى تصوير صراع الإنسان الفلسطينى. فصوته يرتفع ويصور حبه ورفضه. ورغم حصار الشعب الفلسطينى، ومحاولات التصفية الجسدية، والنفسية، والحضارية، هذا الصوت الذى يتجلى فى قصائده تذوب بين سطورها كلمة فلسطين ومأساتها، كأنه يخرج من بركان لايهدأ إلا ليثور. ولكن لم يصرفه الحديث عن شعر النكبة من الاهتمام بالشعر العربى؛ إذ شعره غير منقطع عن حركة الشعر فى البلاد العربية، وغير متجزّئ منها، لأنه قدتربى على أيدى الشعراء العرب القدامى والمعاصرين.

نعالج فى هذا المقال بعض مضامين قصائده عن المقاومة، وهو: التحدى، البؤس والحرمان، التشريد والإبعاد، القتل والاغتيال، السجن، الصمود ورفض المساومة، والأرض، والأمل إلى المستقبل.

الكلمات الدليلية: محمود درويش، أدب المقاومة، مضامين الشعر، دراسة فنية.

*. عضو هيئة التدريس فى جامعة تربيت معلم بسبزوار – أستاذمساعد.
**. طالبة ماجستير فى جامعة تربيت معلم بسبزوار.
التنقيح والمراجعة اللغوية: د.حسن شوندى
Majidi.dr@gmail.com
تاريخ الوصول: ١٣٩٠/٧/١٣هـ. ش
تاريخ القبول: ١٣٩٠/٩/١٥هـ. ش

المقدمة

إنّ اللغة مرآة حال الأمة، وسجلّ مفاخرها، والشاهد على مجدها فى المجالات الاجتماعية والأدبية والسياسية والإدارية، تعزّ بعزة أمتها، وتذلّ بذلتها. (أحمدعثمان، ۲۰۱۱م: ۹) أحد الشعراء الذين يعتبر شعره مرآة لظروف حياته ومجد شعبه، هو الشاعر الفلسطينى الحاذق، محمود درويش.

هو محمود سليم درويش ولد فى ۱۳مارس عام ۱۹۴۱م فى قرية ''البروة'' فى الجليل، ونزح مع عائلته إلى لبنان فى نكبة عام۱۹۴۸م، وعاد إلى فلسطين متخفياً ليجد قريته قددمرت. فاستقر فى قرية ''الجديدة'' شمالى غربى قريته البروة. وأتم تعليمه الابتدائى فى قرية دير الأسد بالجليل، وتلقى تعليمه الثانوى فى قرية كفر ياسيف. (روبرت كاميل، ۱۹۹۶م: ۵۹۴)

انضم درويش إلى الحزب الشيوعى الإسرائيلى فى فلسطين، وعمل محررا ومترجما فى صحيفة الاتحاد، ومجلة الجديد التابعتين للحزب، وأصبح فيما بعد مشرفا على تحرير المجلة كما اشترک فى تحرير جريدة الفجر.

اعتقل أكثر من مرة من قبل السلطات الإسرائيلية منذ عام ۱۹۶۱م بسبب نشاطاته وأقواله السياسية. وفى عام ۱۹۷۲م توجه إلى موسكو، ومنها إلى القاهرة، وانتقل بعدها إلى لبنان حيث ترأس مركز الأبحاث الفلسطينية، وشغل منصب رئيس تحرير مجلة ''شؤون فلسطينية''، ورئيس رابطة الكتاب والصحفيين الفلسطينيين، وأسس مجلة الكرمل الثقافية فى بيروت عام ۱۹۸۱م ومازال رئيسا لتحريرها حتى الآن.

انتخب درويش كعضو فى اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية عام ۱۹۸۸م، ثم مستشارا للرئيس الراحل ياسر عرفات. وفى عام۱۹۹۳م استقال من اللجنة التنفيذية احتجاجا على توقيع اتفاق أوسلو. عاد عام ۱۹۹۴ إلى فلسطين ليقيم فى رام الله، بعد أن تنقل فى عدة أماكن كبيروت والقاهرة وتونس وباريس.

بدأ كتابة الشعر فى المرحلة الابتدائية، وعرف كأحد أدباء المقاومة. ولدرويش ما يزيد على ثلاثين ديوانا من الشعر والنثر بالإضافة إلى ثمانية كتب. وترجم شعره إلى

عدة لغات، وقدأثارت قصيدته ''عابرون فی كلام عابر'' جدلا داخل الكنيست.

نشر درويش آخر قصائده بعنوان ''أنت منذ الآن غيرک'' سنة ۲۰۰۷م، وقدانتقد فيها التقاتل الفلسطيني. ومن دواوينه: عصافير بلا أجنحة، أوراق الزيتون، أصدقائي لاتموتوا، عاشق من فلسطين، العصافير تموت في الجليل، مديح الظل العالي، حالة حصار، وغيرها.

كما حصل على عدة جوائز منها جائزة لوتس عام ۱۹۶۹م، جائزة البحر المتوسط عام۱۹۸۰م، دروع الثورة الفلسطينية عام۱۹۸۱م، لوحة أوروبا للشعر عام۱۹۸۱م، جائزة ابن سينا في الاتحاد السوفياتي عام۱۹۸۲م، جائزة لينين في الاتحاد السوفياتي عام۱۹۸۳م، جائزة الأمير كلاوس (هولندا) عام۲۰۰۴م، جائزة العويس الثقافية مناصفة مع الشاعر السوري أدونيس عام۲۰۰۴م.

شعره ومضامينه

بما أن درويش هو شاعر المقاومة فـأكثر مضامين شعره يدور حول فلسطين والاحتلال، وعند التطرق لدووانيه نجد مضامين قصائده تتكون من التحدي، البؤس والحرمان، التشريد والإبعاد، القتل والاغتيال، السجن، الصمود ورفض المساومة، والأرض، والأمل إلى المستقبل، التي نحاول معالجتها في هذا المقال، وفيما يلي:

التحدي

يعتبر محمود درويش الشعر سلاحا في الصراع بينه وبين اليهود، إذ يقول: «نحن في الحاجة إلى درس الوطن الأوّل، أن نقاوم بما نملک من عناد وسخرية، بما نملک من جنون.» (درويش والقاسم، ۱۹۹۰م: ۶)

يظهر هذا العناد في كثير من أبياته، يستهدف إلى اضطرام نيران المقاومة والدفاع، في قلوب الشعب الفلسطيني، وفي قالب الكلمات التحذيرية إلى حد نستطيع أن ندعي أن جوهر أدبه الرفض، وأن مثل هذه القصائد تمثل المقاومة في أوضح صورها، عندما

تكون فوهة البندقية مصوبة إلى صدر الشاعر الأعزل تمثل لكلماته الجرأة والرجولة الذهنية والعقائدية.

هو يقول: «إننا نخوض المعركة إن لم نتسلح تفاؤلا تاريخيا وبجواز تشد العضة فى معركة التحدى، فكيف نمضى؟ إننا نعيش فى المعركة لحظة تلو لحظة، وتكاد ألانمضى دقيقة من عمرنا إلّا ونحس أننا أمام التحديات الكبرى المستمرة. إننا عندما نكتب نتحدى، وعندما نكون موجودين على أرضنا نتحدى، وعندما نأكل من زادنا نتحدى، لأننا نقادم ترجمة الوطن كله إلى العربية لغة، وإلى الصهيونية أرضاً وتقاليد وزادا.» (درويش، ۱۹۷۱م: ۳۰۰)

ويوقن درويش بدور أشعاره و مسؤولية الكلمة فى صحو الشعب وتحريضهم إلى القيام، فيقول:

كل الرواية فى دمى مفاصلها
تفضّل الحقد كبريتا على شفتى
أطعمت للريح أبياتى وزخرفها
إن لم تكن كسيوف النار.....قافيتى!
آمنت بالحرف....إما ميتا عدما
أو ناصبا لعدوى حبل مشنقة
آمنت بالحرف....لا لا يصير إذا
كنت الرماد أنا.... أو كان طاغيتى!
فإن سقطت....وكفى رافع علمى
سيكتب الناس فوق القبر: لم يمت
(درويش، ۱۹۸۴م: ۹)

يؤمن درويش ببقاء صوته خالدا حتى بعد الموت وإنه يحرق حياة الصهيونية كالنار. إنه يوصى رفاقه الشعراء بترک قصائدهم الماضية التى كانت تدور حول وصف النجم فوق غيمة والليالى والقمر والخمر و تودّد النساء، لأنّه قدتغير كل شئ بعد هجمة اليهود،

ومات ما فات، وهو يقول:

نحن فى دنيا جديدة
مات ما فات، فمنا يكتب قصيدة
فى زمان الريح والذّرة
يخلق الأنبياء!
قصائدنا، بلالون
بلاطعم.....بلاصوت!
إذا لم تحمل المصباح من بيت إلى بى‌ت!
وإن لم يفهم ''البسطاء» معانيها
فأولى أن نذريها
ونخلد نحن.....للصمت

(درويش، ١٩٨۴م: ۵۵)

يرجو درويش أن تكون أشعاره كوسيلة للحرب، تسوق الشعب إلى القيام، وأن تكون إزميلا فى قبضة كادح، و قنبلة فى كف مكافح، محراثا بين يدى فلاح، و يفخر بكلماته، أن تكون غضبا ومجرا فى يد المناضلين، وحنظلا فى فم العدو، ويقول:

لست جنديا كما يطلب منى
فسلاحى كلمة

(درويش، ١٩٨۴م: ٢٧٢)

إنه يأمل أن يحفظ الناس قصائده عن ظهر قلوبهم، ويشربون هذه الأناشيد حتى تؤثر فى قلوبهم. فإنه لاينظم أشعار الحب والغزل كالبلابل، بل تعلم من السلاسل أن يقاتل من أجل وطنه بأشعاره:

يداک خمائل
ولكننى لاأغنى
ككل البلابل

فإن السلاسل

تعلمنى أن أقاتل

أقاتل...... أقاتل

لأنى أحبک أكثر

(درويش، ١٩٨٤م: ٢٤٤-٢٤٣)

وفى قصيدة أخرى يحذر العدو من غضبه قائلا:

أنا لاأكره الناس

ولاأسطو على أحد

ولكننى....إذا ما جعت

آكل لحم مغتصبى

حذار...حذار...من جوعى

ومن غضبى!!

(المصدر نفسه، ١٩٨٤م: ٧١٦)

ثم يخاطب الأعداء، ويحذرهم بأن الدماء التى يشربونها من جثث الشعب الفلسطينى، تخنقهم فى المستقبل القريب، كأنه يسمع صوتا من السماء يصرخ ويخاطب الأعداء الذين أغاروا، وهدموا بيوت الشعب الفلسطينى، وشيدوا بلاطهم على أشلاء الشعب وأنقاض بيوتهم:

يا ويل من تنفّست رئاته الهواء

من رئة مسروقة!

يا ويل من شرابه دماء!

ومن بنى...حديقة...ترابها أشلاء

يا ويلة من وردها المسموم!!

(درويش، ١٩٨٤م، ص ٤٣)

وفى قصيدة ''أمل'' ينظم قائلا:

مازال فى صحونكم بقية من العسل
ردوا الذباب عن صحونكم
لتحفظوا العسل!!
مازال فى كرومكم عناقيد من العنب
ردّوا بنات آوى
يا حارسى الكروم
لينضج العنب...
مازال فى بيوتكم حصيرة...وباب
سروا طريق الريح عن صغاركم
ليرقد الأطفال
الريح...برد قارس...فلتغلقوا الأبواب...

(*المصدر نفسه*، ١٩٨٤م: ١٥-١٤)

فى هذه القصيدة يدعو درويش الناس إلى المقاومة والقيام لحفظ كل ما يمتلكون، من تعدى العدو، حتى آخر قطرة من دمائهم، ويحرض الشاعر الناس لرد العدو، ويحرض الناس أن يغلقوا أبواب بيوتهم، ويحفظوا أطفالهم أمام العدو. يدعو درويش الشعب إلى توحيد الصنوف والإتحاد أمام العدو فى بعض قصائده، ويريد من الشعب أن يضغطوا الكف على الكف، ويمشوا إلى صفوف الأعداء، ويخبرهم بأن هذه العقدة لا تحلّ إلّا بيد الفلسطينيين أنفسهم:

من نفترق
أما منا البحار، والغابات
وراءنا، فكيف نفترق؟
يا صاحبى!
ياأسود العينين
خذنى! كيف نفترق؟

وليس لی سواک!

(درويش، ۱۹۸۴م: ۵۲)

اختار درويش سبيل القيام ضد العدو، ويؤكد على صحة هذا الطريق عندما يسأل السيد المسيح(ع) عن السبيل الذی يريد أن يختاره بعد أن يشكو الله من معاناة احتلال وطنه:

ألو...
أريد يسوع
نعم! من أنت؟
أنا أحكی من إسرائيل
وفی قدمی مسامير وإكليل
من الأشواک أحمله
فأی سبيل
أختار يا بن الله...أی سبيل؟
أأكفر بالخلاص الحلو
أم أمشی؟
ولو أمشی وأحتضر
أقول لكم: أماما أيها البشر!

(درويش، ۱۹۸۴م: ۱۶۵)

البؤس والحرمان

حرم الشعب الفلسطينی من الأمن وحرية البيان، ليس له حق الحياة، وهو محكوم بالتشرد والسجن والخوف والاغتيال، سلب منه وطنه وجميع حقوقه الطبيعية، وتفكك إلی وحدات كالحصی والرمل. ولكن رغم كبت الحرية الفكرية من جانب اليهود، نشأ فی فلسطين جيل من الشعراء الذين ولدوا وترعرعوا فی حضن المأساة، وشاهدوا الحقيقة

وعاشوها، فخرجت من قلوبهم النبرة الشعرية المملوءة بالبؤس والحرمان والحزن والأسى، ومحمود درويش من الذين ذاق مرارة المأساة ونمت أغصان نخلة أغانيهم فى الحزن والفوضى.

تموج أشعار محمود درويش بالسطور التى تنقل المعاناة ونتائج المأساة الأليمة بكل أبعادها، فهذه المأساة حلقة من صراع الإنسان المسحوق، ليأخذ دوره الذى يستحق فى الحياة وفى نشاطه البشرى. إنه لايصمت، وشعره ليس معزولا عن الناس، لأنه يعتقد بأن الصمت المفروض من جانب العدو يساوى الموت، وهو كالسيف الذى يجرحه:

الشاعر العربى المحروم...
تعوّد أن يموت بسيف صمته
ألقى على عينيه كل السر

(*المصدر نفسه*، ١٩٨٤م: ٤٨)

وهاهو محمود درويش، محروم من كل النعم التى خلقها الله، وأودعها فى تراب فلسطين. إنه محروم عن جميع حقوقه، حتى عن حق التكلم، واليهود لا يسمحون له وصف حرمان الشعب وبؤسه فى قصائده. ولكن تتجلى حياة الوطن فى أشعاره. فإنه يبلغ ندائه، ويريد أن يتكلم، ويبلغ رسالته إلى مسامع المجتمع العربى:

فدعونا نتكلم
ودعوا حنجرة الأموات فينا تتكلم

(درويش، ١٩٨٤م: ٢٩٠)

إنه يعتقد بأن جثث أبناء فلسطين التى تتساقط كأوراق الشجرة على الأرض أرفع صوت لإبلاغ نداء التظلم والحرمان. فيصور درويش خصوبة أرض فلسطين ونضرتها، وسماءها الزرقاء والسكينة والهدوء المخيمين عليها بكلمات ممزجة بالأسف والحنين، الأسف الناجم عن اغتصاب هذه النعم، وهو حائر لا يعرف سبب هذا الاغتصاب:

غابة الزيتون كانت مرة خضراء
كانت....و السماء

غابة زرقاء...كانت يا حبيبى
ما الذى غيرها هذا المساء!
أوقفوا سيارة العمال فى منعطف الدرب
وكانوا هادئين
وأداورنا إلى الشرق... وكانوا هادئين
كان قلبى مرة عصفورة زرقاء... يا عش حبيبى
ومناديلک عندى، كلها بيضاء كانت يا حبيبى
ما الذى لطخها هذا المساء؟
أنا لاأفهم شيئا يا حبيبى

(*المصدر نفسه*، ١٩٨٤م: ٢١٥-٢١٤)

إنه يذكر أيام طفولته، تلک الأيام التى عاشها فى قرية "بروة" لعب بين ورودها وزيتونها، وتنفس فى جوها الرائع، لاينسى درويش ذاک اليوم الذى هدم اليهود بيته، وداسوا أزهاره بأقدامهم. فنضب الآبار والمياه، وأصبح درويش محروما من كل النعم منذ الطفولة:

عندما كنت صغيرا
وجميلا
كانت الوردة دارى
والينابيع بحارى
صارت الوردة جرحا
وينابيع ظمأ

(درويش، ١٩٨٤م: ٢٨١)

ويصف درويش فى بضعة أسطر جميع الجرائم التى اقترفها اليهود ضد شعب فلسطين، من سلب حريته فى التعبير، والقيود والسلاسل التى وضعوها على يده، والتعذيب فى غرفة التوقيف والسب والشتم، وما واجهه من الافتراء والاتهام بسبب عروبته. فهو يصف

بلغة سهلة، واضحة حرمان شعبه من الطعام والملابس، ومن وطنه فلسطين التى شبهها بحبيبته الصغيرة، التى قبض عليها الأعداء:

وضعوا على فمه السلايل
ربطوا يديه بصخرة الموتى
وقالوا: أنت قاتل!
أخذوا طعامه، والملابس، والبيارق
ورموه فى زنزانة الموتى
وقالوا: أنت سارق!
طردوه من كل المرافى
أخذوا حبيبته الصغيرة
ثم قالوا: أنت لاجئ!

(*المصدر نفسه*، ١٩٨٤م: ٣٢٣)

كيف يستطيع درويش أن يفرح، حيث يتكسر جسم وطنه المكبول، ويعانى شعبه، ويحزن صوته من أجل حرمان الشعب والوطن، كيف لا؟ وهو يشاهد هذا الحزن فى كل شبر من فلسطين، حتى فى القمر، وفى صوت المياه المتقطرة من روافد البيت، وفى عيون حبيبته الساهمة، وفى يدى أبيه المثفنتين:

كان القمر
كعهده –منذ ولدنا– باردا
الحزن فى حبيبه مرقرق...
روافدا..روافدا
قرب سياج قرية
خرّ حزينا شاردا...
كان حبيبى
كعهده – منذ التقينا– ساهما

الغيم فی ع‌یونه...

کان أبی

کعهده، محملا متاعبا

یطارد الرغیف أینما مضی...

لأجله یصارع الثعالبا

(درویش، ۱۹۸۴م: ۲۷-۲۶)

سلب من الفلسطینی کل شیء حتی بیته، وظل شریدا، لایأمن من الریح والأمطار، ویحاول درویش إیصال هذا الحرمان إلی مسمع المجتمع العربی والعالم کله، بینما یعلم لاجدوی من هذا التظلّم:

وأنا الأسفلت

تحت الریح و الأمطار

مطحون الجنان

لاتفتح الأبواب فی وجهی

ولاتمتد نحو یدی یدان

(*المصدر نفسه*، ۱۹۸۴م: ۱۱۹)

إن درویش یتمسک بقوة، وهی فوق الطاقة البشریة، إذ یندهش من ظلمة الغربة والأبواب المغلقة أمامه، یتصل فی خیاله بنبیه محمّد(ص)، ویتظلم عنده من کل المعاناة التی فرضها علیه الیهود، یشکو من سلب حریته، وغصب أرضه وبیته، ویتألم الغربة التی أثقلت کاهل شعبه فی المنفی، ثم یسأل تدبیر الأمر، ویسمع من لسان النبی ذاک العامل الفرید الذی یمکن بمساندته تحمل کل المرارة، وهو الإیمان والأمل بالله تعالی:

ألو....

أرید محمد العرب

نعم! من أنت؟

سجین فی بلادی

بلا أرض، بلا علم، بلا بيت
رموا أهلى إلى المنفى
وجاؤوا يشترون النار فى صوتى لـ
أخرج من ظلام السجىن.....
ما أفعل؟
تحدّ السجن والسجان
فإن حلاوة الإيمان
تذيب مرارة الحنظل!
(درويش، ١٩٨٤م: ١٥٧-١٥٦)

التشريد والإبعاد

أبعد مئات آلاف من أبناء فلسطين عن أرضهم وجذورهم وحضارتهم بعد نكبة١٩٤٨م، وعاشوا فى الغربة بكل المرارة، باحثين عن مأوى، لاجئين فى الخيام، أو مشردين على هامش مجتمعات غريبة.

بدأ أبناء فلسطين سفرا لاينتهى تحت رياح الضياع والغربة، حاملين عذابات الارتحال الدائم، السفر الذى جعل المشردين كأزهار ذابلة، وذاق درويش مرارة الغربة والبعد كمواطنيه الآخرين، إذ جرّب الاغتراب داخل الوطن والنفى خارجه.

وأثّر هذا الاغتراب والتنقل من عاصمة إلى أخرى، فى نفس درويش، وجَعَلا أشعاره حنينا مؤثرا فى النفوس، ذلک أن الأغانى تخرج من القلوب الجريحة التى حرقتها الغربة، ويصف فى قصائده حياته فى المنفى، ليس له رفيق غير شعره، وهو فى المنفى بعيد عن حنان وطنه وربيع عينيه، ولكنه لايكتفى بالتعبير عن نفسه فحسب، بل يصوّر العذاب الملحق بأبناء شعبه فى المنفى من الاغتراب والإحساس بضياع الهوية، ووحشة البيت الخالى من الضحک والسرور:

وحين أعود للبيت

وحيدا فارغا إلا من الوحدة
يداى بغير أمتعة، وقلبى دونما وردة
فقد وزعت ورداتى
على البؤساء منذ الصبح.....ورداتى
و صارعت الذئاب، وعدت للبيت
بلا رنات ضحكة حلوة البىت...
وحيدا أصنع القهوة
وحيدا أشرب القهوة
فأخسر من حياتى...من كفاحى
أخسر النشوة
رفاقى هاهنا
المصباح والأشعار، والوحدة
وبعض سجائر...وجرائد كالليل مسودة
وحين أعود للبيت
أحس بوحشة البيت
وأخسر من حياتى كل ورداتى
وسرّالنبع....نبع الضوء فى أعماق مأساتى
واختزن العذاب لأننى وحدى
(*المصدر نفسه*، ۱۹۸۴م: ۳۲-۳۱)

فى قصيدة «رسالة فى المنفى» يصور درويش معاناته اليومية فى المنفى. فما عنده شىء إلّا رغيفا يابسا، ودفتر أشعاره. إنه كطائر جريح فقد ريشه، وهو لايستطيع الطيران، ينظر أن ينبت الريش على جناحه لكى يلحق فى أجواء الوطن، يكتب رسالة إلى أهله ليخبرهم عن صحته، بينما يعلم بأن ليس أى بريد لحمل رسالته، ولهذا يبلغ نداءه بالعصافير الحرة. وفى رأيه أن الغريب يموت مرتين: الموت الأول، وهو غُرْبَتُه فى

المنفى، لأن الوطن كل حياة الإنسان، وعندما يسلب عنه، فلا قيمة له بلا وطن:

وقال صاحبى: هل عندكم رغيف؟
يا إخوتى؟ ما قيمة الإنسان
أن نام كل ليلة...جوعان؟
أنا بخير أنا بخير
عندى رغيف أسمر
وسلة صغيرة من الخضار
الليل -يا أماه- ذئب جائع سفاح
يطارد الغريب أينما مضى
ويفتح الآفاق للأشباح
غابة الصفصاف لم تزل تعانق الرياح
ماذا جنينا نحن يا أماه؟
حتى نموت مرتين
فمرة نموت فى الحياة
ومرة نموت عند الموت!...هل يذكر المساء
هاجرا مات بلا كفن؟
أماه يا أماه
لمن كتبت هذه الأوراق
أى بريد ذاهب سدت طريق البر والآفاق...وأنت يا أماه؟
ووالدى، وإخوتى والأهل و الرفاق....
لعلكم أحياء
لعلكم أموات
لعلكم مثلى بلا عنوان
ما قيمة الإنسان

بلا وطن، بلا علم، ودوننا عنوان
ما قيمة الإنسان؟

(درويش، ١٩٨٤م: ٣٩-٣٥)

تمتزج قصائد درويش التى تمحور عن غربة المنفى، بالحزن والحسرة، ولكن لايختم عليها اليأس، بل فى كثير من قصائده يجد الأمل بالعودة إلى الوطن، لأن مرارة التشرد وقسوة السوط إذا انتصرتا على أجساد المتشردين فلن تنتصرا على جوهرهم، والكرامة هى المبرر الوحيد لاحتمال عذاب الإنسان، هو يذكر للمتشردين أرقام أسرى فى روم وسبايا فى بابل وإفريقيا، وتفتت البلاط بأيدى هؤلاء الأسرى:

ونعنى القدس:
يا أطفال بابل
يا مواليد السلاسل
ستعودون إلى القدس قريباً
وقريبا تكبرون
و قريبا تحصدون القمح فى ذاكرة الماضى
قريبا يصيح الدمع سنابل
آه يا أطفال بابل
ستعودون إلى القدس قريبا
وقريبا تكبرون

(*المصدر نفسه*، ١٩٨٤م: ٣٩٨)

القتل والاغتيال

نشاهد بين سطور أوراق ديوان أدب المقاومة عند تصفحه شرح جرائم المعتدين وسفک دماء المظلومين، وفقدان الأمن النفسى، واستشهاد النساء والأطفال فى الشوارع و البيوت. تعد المجزرة العامة فى كفر قاسم عام١٩٥٦م من الحوادث التى كان لها صدى

عظيم بين الشعراء الفلسطينين، خاصة محمود درويش. له أناشيد كاملة عن كفر قاسم فى ديوانه الأخير «آخر الليل». فإنه يخلد ذكرى هذه المصيبة فى قلوب أبناء فلسطين إلى الأبد، ويتعلّم من هذه المذبحة، ومن ضربة الجلاد والحقد الذى يزرع فى قلبه عوسج أن لايساوم، بل يمشى ويقاوم. إنه يعتقد بأن الشعب الفلسطينى تعلم كيف يمارس حريته الوحيدة، حرية اختيار الموت فى سبيل الحياة و المناضلون –وحدهم– قادرون دائما على تغيير المفاهيم، هكذا يصبح مفهوم الموت، مفهوم الحياة:

أعيننى على الحقد الذى يزرع فى قلبى عوسج
إننى مندوب جرح لايساوم
علمتنى ضربة الجلاد أن أمشى على جرحى
وأمشى، ثم أمشى، وأقاوم
(كنعانى، ١٩٨٧م، ٩٥)

يغنى محمود بآلام وطنه، الوطن الذى أصبح كحبل غسيل المناديل، الدم المسفوك فى كل دقيقة، دم أسراب العصافير التى تسقط كالورق الزائد بآبار الزمن، هو يعرض تصويراً مؤلما من قتل أم بين يدى بنتها الصغيرة:

الطفلة احترقت أمها
أمامها...
احترقت كالمساء
وعلموها: يصير اسمها
فى السنة القادمة سيدة الشهداء
و سوف تأتى إليها
إذا وافق الأنبياء
(درويش، ١٩٨٤م، ٤٣٨)

السجن

عاش محمود درويش حقيقة السجن، إذ ذاقه منذ حداثته مرارا بسب أغانيه المفعمة بالتحدى والغضب و التى تدافع عن الشعب الفلسطينى وعبير البرتقال. ظن العدو الصهيونى أنه يستطيع أن يسكت حنجرة الشاعر باعتقاله فى السجن، بينما لايخرج صوت الشاعر من فمه، بل يخرج من قلبه، وكما يقول درويش، الشعر دم القلب ودموع العين، صوت الشاعر صوت الحرية وصوت الأرض، لا يمكن أن يحبس فى زجاجة. إذن ليس منع دفاتر الشعر ووضع التراب على فم الشاعر، وشَدِّ السلاسل على يده، مانعاً فى سبيل مقاومة درويش، لأنه إذا شدت يداه وملئ فمه بالتراب يغنى بلسان مليون عصفور على أغصان قلبه، و يكتب أبياته بالأظافر والمحاجرو الخناجر، والسجن لم يبعده عن الناس والأشياء والقضية، وهو يحكى قصة احتلال وطنه فى كل مكان، فى غرفة التوقيف وتحت السوط والقيد، يقول:

شدوا وثاقى
وامنعوا على الدفاتر والسجائر
وضعوا التراب على فمى
فالشعر دم القلب
ملح الخبز...
سأقولها

(درويش،١٩٨٤م: ١٢٣)

يقدر درويش تحمل ألم السجن، ولكن الوطن هو الذى يؤذيه، ويحن إليه خلف السور والباب، ويذوق مرارة فراغه. إنه يريد أن يعيش حرا تحت ضوء عينى وطنه، ويرجو الرجوع إلى مهد طفولته، ولهذا نجد فى حبسياته روح الأمل بالحريه والعود إلى حضن الأم، غير السجن وجهة نظره وزاد قيمة كل شيء عنده، وهو فى السجن ينظر إلى كل شيء بالنظر الجديد. فصار القمر أحلى وأكبر فى السجن، وصارت رائحة الأرض عطرا له، و طعم الطبيعة سكرا له، إنه يرى حريته على سقف السجن، وهى مصلوبة على

النار، يصرخ ويخبر الجلاد بعودته وتحرير المسجونين وموت أحزان السجن بعد أن يسترجع الزيتون خضرته ويمر البرق فى وطنه:

كنت مصلوبا على النار!
أقول للغربال: لا تنهشى
فربما أرجع للدار
وربما تشتى السما
ربما...تطفىء هذا الخشب الضارى!
أنزل يوما عن صليبى
ترى...
كيف أعود صافيا....عارى!
(المصدر نفسه، ١٩٨٤م: ١١٣)

الصمود ورفض المساومة

تعلم شاعر المقاومة من جرح احتلال وطنه أن يقاوم و يمشى على جرحه، وأن يصبح حتى العدم، وتعلّم أن لايقبل السلام من جانب اليهود، لأنه لايستطيع أن يجمع بين اقتراح السلام من جانب والظلم والجور من جانب آخر. يعرف شاعر المقاومة بروحه السليمة خدعة العدو عند محاولتهم بفرض السلام عليه، ويعرف تاريخه وحضارته، ويفخر بهما، ولايخضع أمام العدو.

يقف محمود درويش كالشجر ويموت واقفا، لايندم على صموده حتى إذا أريق دمه. لأن خطواته فى سبيل الصمود والمقاومة مثل الشمس للآخرين، ترشدهم ولاتقوى بدون دمه:

لأجمل صفة أمشى
فلاأحزن على قدمى
من الأشواک

أن خطای مثل الشمس

لاتقوی بدون دمی!

(درويش، ١٩٨٤م: ١٤٧)

إنه يصمد فی طريقه، لايقف ولاينام، لأن النوم الذی يريده العدو يعادل الموت واغتصاب الوطن الكامل. فمن ينام وسط الطريق ويترک الصمود كأنه ينام خشبة النعش:

ولاأقف

ولاأهفو إلی نوم وأرتجف

لأن سربة من ناموا

بمنتصف الطریق...

كخشبة النعش

(المصدر نفسه، ١٩٨٤م: ١٤٨)

كيف يساوم؟ وأنصاب القبور فی ''كفر قاسم'' تمتد نحوه، وتريد منه ''الصمود'' كأنه يسمع أصوات شهداء كفر قاسم، ووصيتهم التی تستغيث بأن يقاوم، لايريد شهداء كفر قاسم اليوم الندب والرثاء عند قبورهم، بل يصرخون:

لا تذلوا! قفوا وخلدونا بالصمود

ماذا حملت لعشر شمعات أضاءت كفر قاسم

غير المزيد من النشيد، من الحمائم...والجماجم..؟

هی لاتريد...ولا تعيد

رثاؤنا.....هی لا تساوم

فوصية الدم تستغيث بأن تقاوم

فی الليل دقوا كل باب

وتوسلوا ألا نهيل علی الدم الغالی التراب

قالت عيونهم التی انطفأت لتشعلنا عتاب

لاتدفنونا بالنشيد، وخلدونا بالصمود

(درويش، ۱۹۸۴م: ۲۲۰)

يعتز درويش بهويته العربية وحضارته القديمة التى نبتت جذورها فى فلسطين. هو عربى ولايخجل، لأنه يعرف كيف يمسک قبضة المنجل، وكيف يقاوم الأعزل، وكيف يبنى المصنع العصرى والمنزل والمستشفى، ويأكل من يده، ولايَمُدُّها إلى صدقات العدو:

سجل! أنا عربى

وأعمل مع رفاق الكدح فى محجر

وأطفالى ثمانية

أسلّ لهم رغيف الخبز والأثواب والدفتر

من الصخر...ولاأتوسل الصدقات من بابک

ولاأصغر

أمام بلاط أعتابک

(درويش، ۱۹۸۴م: ۷۴-۷۳)

الوطن

«الإنسان شديد الصلة بالمكان الذى ولد فيه، ونشأ على ترابه، وهو البيئة التى لها الأثر الكبير فى حياته وتكوينه الفكرى والنفسى. فالإنسان يرتبط بوطنه ارتباطا وثيقا، فتأثير الوطن فى الإنسان أمر محتوم.» (سارى الديک، ۱۹۸۶م: ۶)

فإن هذه الصلة بين الناس والوطن أوثق فى نفوس الشعراء، إذ يعاملونه إنسانا ذا روح و هوية. فدائرة الحب بينهم و بين وطنهم وسيعة، خاصة عند شعراء المقاومة الفلسطينية الذين يعيشون فى وطن مكبول، يساوى الحب بالوطن بحب الحبيبة والأم فى قلوب بعض الشعراء كمحمود درويش.

فإذا تكلم معه، كأنه يتكلم معشوقته، أو كأنه ابن مناضل يكلّم أمه. ونشاهد مزجا عميقا بين صورة المرأة وصورة الوطن والعشق المتوهج إلى حد الفناء به. هو فى قصائده

المجنون عشقا فى تراب الوطن. فإن حبيبته هى الأرض، وهو يتغزل بها، لأنه يعتقد بأن القلب بلا حب هو قطعة لحم، تصلح أن تكون طعاما للكلاب.

هو شاعر الوطن. فيدافع عن وطنه، ولعل كل ما يكتبه فى نهاية الأمر يتخلص فى كشف نفسية الإنسان الذى يدافع عن وطنه بمختلف الأشكال والأزياء:

نسيمک عنبر
أرضک سكر
وقلبک أخضر!
وإنى طفل هواک
على حضنک الحلو
أنمو وأكبر

(*المصدر نفسه*، ١٩٨٤م: ٢٤٤)

يقول درويش: «أنا لاأكون إلا فى الأرض، وكل وجود خارجها إنما هو ضياع وتيه نهائى.» لهذا نشاهد أشعار درويش عند قراءة ديوانه مليئة بوصف أرض الوطن وسمائه ومناخه، ونسائم لياليه البحرية وذرات التراب، وزيتونه ورائحة البرتقال والياسمين.

إن اهتمامه بالبرتقال والزيتون مستوحى من واقع الإنسان الذى غرس هاتين الشجرتين وسقاهما بالعرق والأمل، منتظرا ثمارها. فهذه العلاقة بين الزارع والشجرة تحمل مدلول استمرار الحياة والأمل والوطنية والتلقائية. (درويش، ١٩٧١م: ٢٧٣)

إن التشبيب بالأرض عند درويش شديد، إذ يضع الوطن فى حقيبته فى بعض قصائده عندما يضطر بترک الوطن، ويحمله إلى أى مكان يهرب ويطارد فىه. (بدوى، ١٩٨٥م: ٢٦٣-٢٦٢)

إنه يحب الوطن، حب القوافل واحة عشب وماء، وحب الفقير الرغيف، ويعطى عيونه وفؤاده له ويعشقه رغم أن حرير صدره فرش وثير للعدو:

سأحب شهدک...
رغم أن الشهد يسكب فى كوؤس الآخرين

(*المصدر نفسه*، ١٩٨٤م: ١١)

يغنى درويش لوطنه حتى على المشانق، ويعزف حبه بالوطن فى صدر يتأوّه بصوت يحصل من ذوبان قلبه تحت طاحونة الألم، إنه يحمل الوطن فى دفاتر شعره، ويريد أن يذكر بلده بأناشيده، إنه خلف السور والباب فى المنفى، ويستمر فى الحياة بعشق وطنه فقط، ويرجو أن يكون تحت عينى وطنه، لأنه جذر لايعيش بغير أرضه، وتطير روحه دائما فوق أعشاب أرضه كفحلة. فإنه شبّه ألم البعد من الوطن بالنسر الذى يغمد منقاره فى عينه:

أيها النسر الذى يرسف فى الأغلال من دون سبب...

لم يزل منقارک الأحمر فى عينى

سيفا من لهب...

(درويش، ١٩٨٤م: ٢٣٤)

حب الوطن يحتل ذاكرته ودماغه كالضوء، والوطن هو الصراخ الوحيد والصمت الوحيد عنده. فهو حزنه و فرحه، قيده وحريته، شمسه التى تنطفىء، وليله الذى يشتعل، وهو موته وحياته، والرئة الأخرى بصدره:

أموت اشتياقا

أموت احتراقا

شنقا أموت

وذبحا أموت

ولكننى لاأقول: مضى حبنا، وانقضى

حبنا لا يموت

(*المصدر نفسه*، ١٩٨٤م: ١٧٨)

فإنما يبقيه حيا حب الوطن، كما يقول:

أيتها البلاد القاسية كالنحاس

قولى مرة واحدة: انتهى حبنا

لکی أصبح قادرا علی الموت، والرحيل

(درويش، ۱۹۸۴م: ۳۸۱)

يصدق درويش وطنه، ويری مدنا ضائعة، يری راية فلسطين المهتزة علی الأرض، يری كربلاء، يری وطنه فی حبال الشوك راعية بلاأغنام. وتؤذيه هذه الأربعة، ومع هذا لايزال يأمل بحرية وطنه من الاحتلال، ويحتمل المصائب، لكی يشاهد ميلاد صباح الوطن، ويؤمن بأن وطنه نخلة لن تنكسر فی العواصف.إذن شبّه الوطن هناک بالنخلة فی الاستقامة، وشبه الأعداء بالعواصف:

وأنت كنخلة فی البال

ما انكسرت لعاصفة

وما جذبت ضفائرها

وحوش البيد والغاب

(*المصدر نفسه*، ۱۹۸۴م: ۸۳)

الأمل إلی المستقبل

يعتبر شاعر المقاومة والألم والبؤس والحرمان جسرا يستطيع أن يوصله إلی الحرية. إنه يحتمل المرارة بأجمعها أملا إلی مستقبل يزدهر فيه شجرة النصر التی يسقونها الأطفال بدماء أريقت فوق ثری فلسطين، ويطمئن بأن يوم النصر آت عن قريب.

درويش من الذين يؤمنون بالغد. فهو أفضل من اليوم. فالشاعر يبشر علی سبيل المثال بيوم ينهدم فيه غرفة التوقيف والسلاسل، وهذا المستقبل يتحقق بمجاهدة الأطفال المناضلين الذين يكبرون ويقلعون الصخر وأنياب الظلام:

من يرقص الليلة فی المهرجان

أطفالنا الآتون

من يظفر الأحزان

إكليل ورد فی جبين الزمان؟

أطفالنا الآتون
من يضع السكر فى الألوان
أطفالنا الآتون
ونحن، يا معبودتى
نأخذه فى غرفة المهرجان
نموت مسرورين
فى ضوء موسيقى
أطفالنا الآتون

(*المصدر نفسه*، ١٩٨٤م: ٣٢٤-٣٢٣)

شبه درويش جثث الشهداء بحبوب سنبلة تحت الثرى التى تسقى دائماً بدماء الشهداء. إذن يعتقد بأن هذه الدماء سوف تثمر، وسوف تنمى الحبوب، وتملأ فلسطين بالسنابل:

شمسنا أقوى من الليل
وكل الشهداء
ينبتون اليوم تفاحا وأعلاما وماء
ويجيئون... يجيئون

(*درويش*، ١٩٨٤م: ٢٧٣)

ينظر درويش يوم ميلاد أرضه فى ربيع النصر، اليوم الذى سوف تزدهر شجرة منبتة فى دماء الشهداء، ويحتمل الاحتلال بكل مصائبه لتحقيق هذا الأمل، ويضع من المشانق ومن صلبان الماضى والمستقبل سلالم للغد الموعود:

سنضع من مشانقنا
ومن صلبان حاضرنا وما فينا
سلالم للغد الموعود

(*المصدر نفسه*، ١٩٨٤م: ١٤١)

النتيجة

محمود درويش شاعر كافحَ عدو وطنه منذ نعومة أظفاره، واعتقل فى هذا السبيل عدة مرات، ولكن لم يفقد أمله فى سبيل تحرير بلده، بل ذاود عنها كما يدافع الغيور عن حبيبتها. وهو شاعر ما أشغله أى شيء عن ذكر بلده، له حب وانتماء خاص بمسقط رأسه معتقدا بأن الوطن سيحرَّرُ يوما.

حصيلة أشعاره اجتمعت فى عدة دواوين تطرق إثناءها إلى مشاكل مواطنيه؛ لم يستطع درويش اختيار الصمت أمام رؤية معاناة شعبه. فأنشد عن مشاكل الاحتلال كالبؤس والحرمان والقتل والتشريد وصعوباته. يتحدث عن السجن ويعتقد بأنه لايمنعه أى شيء عن الجهاد حتى السجن، يرى نفسه محروما عن مناعم بلده، وحينئذ يتذكر أيام طفولته وسكونها، فيتأوه ويستغيث.

ليس للشاعر أى سلاح إلا الشعر فيتحدى به العدو، ويدعو الناس إلى الوحدة والثورة.لايفقد الشاعر أمله فى المستقبل وينظر إلى يوم ميلاد أرضه فى ربيع النصر، يوما سوف تزدهر فيه شجرة نابتة من دماء الشهداء.

المصادر والمراجع

أحمد عثمان، حمزة. ٢٠١١م. *اللغة العربية؛ مكانتها وقضاياها اللغوية*. فصلية إضاءات نقدية. السنة الأولى. العدد الثانى. ٩-٣١.

بدوى، عبدى. ١٩٨٥م. *قضايا حول الشعر*. مصر: دارالمعارف.

درويش، محمود. ١٩٧١م. *شيء عن الوطن*. الطبعة الأولى. بيروت: دار العودة.

درويش، محمود. ١٩٨۴م. *ديوان محمود درويش*. الطبعة الحادية العشر. بيروت: دار العودة.

درويش، محمود، وسميح القاسم. ١٩٩٠م. *الرسائل*. بيروت: دار العودة.

ساری الديک، نادى. ١٩٨۶م. محمود *درويش(الرسالة)*. بيروت: دار العودة.

كاميل، روبرت. ١٩٩۶م. *أعلام الأدب العربى المعاصر*. سيرة و سير ذاتية. بيروت.

كنعانى، غسان. ١٩٨٧م. *الأدب الفلسطينى المقاوم تحت الاحتلال*. بيروت: مؤسسة الأبحاث العربية.